العاب الحيوانات وحيلها

كان علماء الحيوان يقولون ان العاب الحيوانات تجري بموجب ما فيها من الغرائز ليس الاَّ وان الدافع لها الى هذا العمل او ذاك خُلق معها . وليس من ينكر ان في الحيوانات كلها من الانسان فنازلاً غرائز موروثة كما هو مشاهد ومشهور ولكن يخطئ من يقول ان الحيوانات محرومة من قوة الابتكار في حركاتها وسكناتها . وقد أدرك علماء الحيوان الحديثون هذا الخطاء فتجنبوهُ وخالفوا سلفاءهم في ما ذهبوا اليهِ واثبتوا ان الحيوانات داجنة كانت او برية تبتكر حيلاً مختلفة في طلب رزقها والعابًا عديدة لتسلي بها كما يفعل الاولاد

فمن العاب الاولاد التزحلق على ضفاف الانهر اذا كان منها سطوح مائلة . وكذلك تفعل الحيوانات المعروفة بكلاب الماء فانها تختار ضفة مائلة حيث التراب ناعم وتزيل كل ما عليها من الحيدان والحجارة التي قد تعوقها في تزحلقها ثم تصعد الى رأس الزحلوقة وتقف احدها هناك ورأسهُ الى اسفل ويلصق صدرهُ بالتراب ويدفع الارض برجليهِ فيندفع نازلاً ويغوص بقوة الاندفاع في الماء فتجذو البقية حذوهُ وتظل تكرر ذلك حتى تكل فتبطل اللعب ولكنها تعاودهُ في اليوم التالي . ولا تنقطع عنهُ صيفاً ولا شتاء ولكنها تختار في الشتاء ضفافاً يكسوها الثلج والجليد بدلاً من التراب لتحذر اللعب عليهِ

ويروى ان معزى الالب تلعب العابًا مشابهة لما تقدم . ففي الصيف تصعد الى القنن العالية حيث الثلج دائم على مدار السنة وتختار منحدرًا صقيلاً تتزلج فيهِ . فينطرح احدها اولاً في اعلاهُ ثم يحرك قوائمهُ كأنهُ يسبح في الماء فينحدر الى اسفل ومتى بلغ آخر المنحدر يعود الى رأسهِ مسرعاً ليعيد الكرة . كلُّ ذلك يجري والمعزى التي معهُ تراقب عملهُ لتفعل مثلهُ ولا تزال تكرر ذلك حتى يدركها الاعياء

حكى هملد السائح انهُ رأى في بعض اسفارهِ قردًا لوبًا بلغ من تفننهِ في اللعب انهُ كان يتربص حيث يرى ولا يُرى حتى اذا مرَّ قطيع من الخنازير استفرد خنزيرًا منها ووثب على ظهرهِ وهو يبدي مزيد الانبساط مما جرى والخنزير يحاول التملُّص منهُ فلا يستطيع . وكان القرد يثبت احيانًا على ظهر الخنزير كأنهُ قطعة من جلدهِ ولا يفارقهُ حتى وهو يأكل علفهُ

وربَّى احد العلماء حيوانًا من النوع الذي يسميهِ العامة "بالسناس" وحيوانًا من النوع المعروف بكلب الماء فكانا يقضيان وقتًا طويلاً وهما يلعبان يمسك السناس طرف ذنب كلب

الماء بيديهِ ويرقص حولهُ فيهجم هذا عليهِ فلا يتالهُ لخفة الاول وثقل الثاني . فاذا فرغا من اللعب اضطجعا جنبًا لجنب

والسنجاب من اكثر الحيوانات لعبًا واشهر العابهِ الوثب من شجرة الى شجرة بخفة تفوق خفة سائر الحيوانات . وكذلك جراء الحيوانات التي من فصيلة الهرّ كالاسد والفهد والنمر فانها لا تكاد تكلُّ من اللعب ولا تعرف لهُ وقتًا

ويقال ان لصغار افراس النهر والافيال العابًا خاصة بها على ضخامة اجسامها وثقل حركاتها. واشهر عن الادباب الرقص وتقليد حركات غيرها منذ عهد بعيد . وعند اهل كشتكا رقصة يسمونها رقصة الدب فيرقصون ويقلدون جميع حركات الدب وسكناتهِ في رقصهِ ويفتخرون بانهم تعلموا الرقص من الادباب

ومن اغرب العاب الحيوانات ما يفعلهُ نوع من الفار في كاليفورنيا سمي فار التجارة . وسبب هذه التسمية ان الفارة منهُ لا تسرق شيئًا الاَّ وضعت شيئًا آخر مكانهُ . فمن حكاياتها ان فارة سطت ذات ليلة على منزل ودخلت المطبخ فرأت قصعة مملوءة حلوى فسرقت ما فيها ثم ملأتها مثل ما في جراب الكردي في الحكاية بين قطعة عصًا مكسورة وقطعة حبل وقطع شريط وزجاج وما اشبه

وحكى بعضهم انهُ رأى جحر فارة في منزل مهجور فاذا فيهِ عوارض حديد منتظمة الوضع ونحو ثلاثين شوكة وملعقة وثلاث سكاكين كبيرة وكيس عتيق وعدة من ادوات التجارة وقطع ساعة وغير ذلك من الاشياء التي لا حاجة بالفارة اليها لغرض من الاغراض وانما جمعتها للتلهو بها كما يفعل صغار الاولاد

ويشبه هذه الفارة حيوان في اميركا الجنوبية يحمل كلَّ ما يستطيع حملهُ مما يمرُّ عليهِ في روحاتهِ وغدواتهِ ويجعلهُ عرمًا عند باب وجارو . وكثيرًا ما يفقد الرعاة بعض ادواتهم فيفتشون عنها امام اوجرة هذا الحيوان فيجدونها

ومثل هذه بين ذوات الاربع الغراب والعقعق بين الطيور فقد اشتهر عن الاول السرقة لغير سبب حتى كان المثل العامي " قالوا للغراب لماذا تسرق الصابون قال الاذى عادة " . وكذلك الثاني وكانت العرب تضرب بهِ المثل في السرقة والخيانة . قال الشاعر

اذا بارك الله في طائرٍ فلا بارك الله في العقعقِ
قصير الذنابى طويل الجناح متى ما يجد غفلة يسرقِ
يقلّب عينيهِ سيفي رأسهِ كانهما قطرتا زئبقِ

قال في حياة الحيوان " العقعق طائر معروف كثير الخيانة يسلب الاشياء النفيسة من الحلي والجواهر ويرميها موضعاً آخر " حتى اقد قيل ان من الناس من كان يربي العقعق لسرقة الاشياء الثمينة

ذكر احد علماء الحيوان انهُ عثر ذات يوم على عشّ غراب ملئ قطع نقار لامعة وزجاج وما اشبه من الاشياء البرّاقة والغراب واقفٌ بين جواهره ينقدها ويختار جيادها ويضمها وعاد في اليوم التالي الى حيث كان العشّ فلم يرَ للجواهر اثراً وسبب ذلك ان الغراب استشعر خوفاً من اهتداء ابن آدم الى مخبإهِ وما ذخرهُ فيهِ من الكنوز فنقلها الى حيث لا يعلم احد مكانها

ومن الطيور التي تتسلّى بالرقص طائر في اميركا الجنوبية اسمهُ روبيكولا يجتمع الذكر منهُ في بقعة مستوية فيزيل ما فيها من العيدان والحجارة وينتظم عشرة او اكثر في حلقة ويقف ذكر في وسطها فينشر جناحيهِ وينفش ذنبهُ ويأخذ يخطر خطراناً بطيئاً في بادىء الامر ويدور على مهل ثم يسرع في خطرانهِ ودورانهِ حتى يشبه " البلبل " الذي يلعب به الاولاد ويظلّ كذلك حتى يبلغ منهُ التعب مبلغهُ فيقفز الى خارج الحلقة ويحلّ آخر محلهُ ويفعل فعلهُ

ومن الالعاب ما يعمد الحيوان اليهِ لدفع مغرم اوجرّ مغنم كأنهُ يستعمل الجلدّ في معرض الهزل من ذلك ما رواهُ الدميري عن طائر اسمهُ الغواص حيث قال " حكى بعضهم قال رأيت غواصاً غاص وطلع بسمكة فطلبهُ الغراب فاخذ السمكة منهُ فغاص مرة اخرى وطلع بسمكة وقربها من الغراب فاخذ الغراب السمكة واشتغل بها فوثب الغواص واخذ برجل الغراب وغاص بهِ ووقف بهِ تحت الماء حتى اغرق الغراب وخرج سالماً " . وقال عن طائر اسمهُ الكركم " وربما اصطاد العصافير وصغار الطير مما يكون في الآجام والمياه وغيرها لكن لا في جميع السنة بل في فصل الربيع فاذا صاح اجتمعت عليهِ العصافير وصغار الطيور مما يكون في الآجام والمياه وغيرها فتزقهُ من اول النهار فاذا كان آخر النهار اخذ واحداً منها فأكلهُ فذلك فعلهُ في كل يوم الى ان ينقضي فصل الربيع فاذا انقضى انعكست عليهِ فلا تزال تجتمع عليهِ وتطردهُ وتضربهُ وهو يهرب منها ولا يسمع لهُ صوت الى فصل الربيع "

ومن هذه الالعاب ما يأتيهِ بعض انواع القردة التماساً للطعام فانها تصطفّ صفوفاً منظمة كالجيش الزاحف للقتال وتمشي في طليعتها قرد منّ يصدر الاوامر اليها باصوات تشبه نباح الكلاب ويسير عن جناحيها شراذم للاستطلاع خشية طارىء مفاجئ ويعزّز السائة حرس

يسير مبتعداً عنها . وفي الوسط الاناث وصغارها . ويحافظ الكل اشدّ محافظة على النظام ما عدا الاناث والصغار فانها لا تكفّ عن الرقص واللعب واثقة انها من حماية الجنود ورعايتها في حرز حريز . فاذا بلغت حقلاً من الحقول المزروعة ذرةً انبثّت فيهِ كرجل الجراد ما عدا الحرّاس فانهما تلزم اماكنها للحراسة حتى اذا ملأت بطونها الطاوية كرّت راجعة تحمل ما تطيق حملهُ من الغنائم والاسلاب . ولكن اذا طلع عليها عدوٌّ وهي آخذة في السلب والنهب انذرها الحراس بالخطر فتأخذ ما تستطيع من الذرة وتنقلب عائدة من حيث اتت كالبرق الخاطف وهي محافظة على النظام في ادبارها محافظتها عليها في اقبالها . اما الحرّاس فلا تشترك في السلب والنهب بل تقتصر مهمتها على الحراسة فاذا بلغ الجيش محلهُ آمناً وزّع عليها انصبتها من الاسلاب

والاسد وما كان من فصيلة الهرّ مثلهُ كالفهد والنمر تلعب بفرائسها كما يلعب الهرُّ بالفارة الاّ ان الفارة ربما كانت اكثر احتمالاً لمداعبة الهرّ من فريسة الاسد لمداعبتهِ اياها لثقل وطأة الاسد في المزاح . حدّث لشستون المرسل الافريقي الشهير قال " دهمني الاسد ذات يوم على غرّة فالتفتُّ حولي واذا بي اراهُ يجمع نفسهُ في زورهِ ويدقُّ الحجار بصدرهِ تحفزاً للوثوب عليَّ ثم وثب وثبة صادقة اصاب بها كتفي فكسرهُ والقاني الى الارض وادنى فمهُ من اذني وجعل يزأر زئيراً مخيفاً وهو يهزُّني بكفهِ كما يهزُّ الكلب الجرذ فاستولى عليَّ شبه سبات فقدت بهِ الشعور فلم أعد احسَّ بخوف ولا بألم ولكني لم افقد صوابي بل بقيت ادرك كلَّ ما يجري لي . والمرجَّح ان هذه الحال تعرو كلَّ فريسة من فرائس الحيوانات آكلة اللحوم فاذا صحَّ ذلك كان لطفاً من العناية الربانية تتدارك بهِ المخلوقات ذات الحسّ المختبئة لغمرات الموت " كلُّ ذلك كان يفعلهُ الاسد بلشستون من قبيل الملاعبة والمضاحكة " ولكنهُ ضحكٌ كالبكا "

ومن خرافات العامة ان الضبع اذا لقيت انساناً لم تهاجمهُ بل مرَّت بهِ ماسة اياهُ فتشمّهُ فيركبها الى مغارتها وهناك تشرع في ملاعبتهِ ودغدغتهِ حتى يسمع صوت ضحكهِ وانما يضحك لما يعتريهِ من الذهول فلا يدري ما هو فيهِ . وكان العرب ينسبون الضحك الى الضبع في شعرهم ونثرهم . قال ابن أُخت تأبط شرًّا

تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل

وكان ابن دريد يقول " انما اراد الشاعر انها تكشّر لاكل اللحوم وهذا سهو منهُ لجعل كشرها ضحكاً وقيل معناهُ انها تستبشر بالقتلى اذا اكلتهم فيهرُّ بعضها على بعض فجعل هريرها ضحكاً لان الضحك انما يكون منهُ كتسمية العنب خمراً . وتسهيل الذهاب تصيح وتعوي قالهُ ابن سيده " والغالب انهم قصدوا بالضحك السرور كما تقدم اذ لا يعقل انهم ينسبون

الضحك الى الضبع وهم يصفون الانسان في كتب المنطق بالضاحك تمييزاً له عن سائر الحيوان. والحق يقال ان كل من رأى الضبع وأسنانها بادية يحسب انها تضحك حقيقة

والذئب ليس دون غيره من الحيوانات في اختراع الحيل لسد تهمه بل ربما كان ادهى وامكر. قص بعض الصيادين الانكليز القصة الآتية قال كنت ذات يوم ارقب سرباً من الغزلان بمنظاري وهي تسرح في سهل امامي وحانت مني التفاتة الى احد جوانب السهل فرأيت ستة ذئاب مقعية في حلقة كأنها تعقد جلسة للمشاورة. فجلست حيث أرى ولا أرى رغبة في استطلاع طالع امرها ومعرفة موضوع جلستها. فاضطجع احدها على الارض وتفرقت الخمسة الباقية في جهات مختلفة حتى احدقت بالغزلان عن بعد فصمد احدها لها يتحداها للنزال ففرّت مذعورة الى الجهة المقابلة ولكنها لم تبعد كثيراً في فرارها حتى لقيت ذئباً آخر في سبيلها ففرت الى جهة اخرى لتلقى ذئباً آخر وما زالت في كرّ وفرّ واقدام واحجام حتى غلبها الاعياء ولكن لحسن حظها كانت قد دنت من المكان الذي اختبأت فيه فاخذتني الشفقة عليها فتناولت بندقيتي واطلقتها على اقرب ذئب مني فقتلته فلما رأت بقية الذئاب ما حلّ باخيها انتعظت به واستبصرت الفرار. وكانت الغزلان قد اغتنمت فرصة ذلك الارتباك والاختلاط فاطلقت سوقها للريح لا تلوي على شيء

وحكى آخر ان ذئاباً استفردت جاموساً فخشيت لقاءه مواجهة علماً بما هو عليه من شدة البأس فساقته امامها على سهل حتى اوصلته الى شفا جرف هارٍ فضيقت حلقة الحصار عليه ثم هبّت في وجهه توسعه عضاً فنكص الى الوراء فتدهور الى اسفل وتحطم قبعته ولفاسته

اما الثعلب فقد ضرب العرب الامثال في مراوغته فقالوا اروغ من ثعالة ومثله اخوه ابن آوى فلا نطيل الكلام عليهما بل نذكر بعض ما عرف عنهما مما لم يشتهر كثيراً منه ان بنات آوى تشبع الاسد عن كثب لا تحيشاً لفرص اغتياله ولا اعجاباً بجماله بل تكدياً تلتقم الفتات الساقطة عن مائدته. فاذا اصاب صيداً اكل منه بلغة وترك الباقي انفة واستكباراً فتتناول بنات آوى فضلاته بلا دعوة ولا معاودة

ومع ما الثعلب عليه من الروغان والمكر فان في قلبه من الشجاعة والصبر على المكاره ما يندر وجوده في اشجع الحيوان واصبره. روي ان بعضهم اخذ ثعلباً ليصبره فوجده بثلاث ارجل فلما فتح جوفه وجد الرجل الرابعة في معدته وبيان ذلك ان الثعلب كان قد وقع في فخ فاحتال للخلاص منه بقضم رجله التي علقت به فقضمها وابتلعها ولكنه وقع في فخ آخر فكأنه فرّ من منيته ليوافقها في بعض فرائه